الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

الاحد 07 رمضان 1424 هـ 2 نوفمبر 2003 العدد 9105

بريد طباعة

كيف سقط العملاق الشيوعي؟

محمد بن عبد الله بن عبد العزيز يتتبع في كتابه عن الاتحاد السوفياتي السابق الأسباب الكامنة وراء الحدث الذي غير العالم

لندن: حسن ساتي

بذل الأمير محمد بن عبد الله بن عبد العزيز جهدا وافرا في إصداره لمؤلفه «غورباتشوف وسقوط الشيوعية»، ذي القيمة الأكاديمية والسياسية والثقافية، كون القضية التي حدثت مع العقد الأخير من القرن الماضي لم تكن من نوع الأحداث التي يتداعى أثرها في محيطها القطري أو الأقليمي فقط، وإنما في فضاء أوسع يتسع لها بنوع خاص من الاستضافة، أقرب ما يكون التشبيه هنا الى ذلك الوصف الذي وصف به ابن الرومي ذلك الخباز الذي يدحي الرقاق يوم أن قال:

إن أنسى لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة أنس اللمح بالبصر مابين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها بيضاء كالقمر إلا بمقدار ما تنداح دائرة في حافة الماء ترمي فيه بالحجر ذلك لأن سقوط الاتحاد السوفياتي، كان مثل كرة وقعت على مياه الكرة الأرضية ويابستها، فلم تترك حدثا إلا وتركت عليه بصمات كثيرة ظهر بعضها، فيما ظل بعض آخر في حالة كمون انتظارا لحدث قادم تحمله أرحام المستقبل. ولا يجيء القول بمثل هذا الحكم مماهاة للمؤلف أو للكتاب القيم الذي استقصى القضية ولاحقها تاريخا وتأصيلا لمكوناتها، وإنما لتأكيد ضخامة الحدث، وتفرده عن أحداث تاريخية كثيرة بهذه الامتدادات التي يواليها على حاضر الإنسانية ومستقبلها. ويكفي لدعم مثل هذا التأويل الوقوف عند 11 سبتمبر مثلا. فالنظر القاصر فقط يمكن أن يقرأه في قشرته التي تحمل توقيعات القاعدة أو ردود الفعل الأميركية...الخ، لأن قلب الحدث يوحي كذلك بوجود العملاق السوفياتي (كما سماه المؤلف) في قلب 11 سبتمبر، ومن أين لعين بصيرة أن تتغافل عن غزو أفغانستان ومن بعده الجهاد الأفغاني الذي تمخض بعد تحريفه عن القاعدة وطالبان...الخ ليصل ذراه في 11 سبتمبر، أوأن تتغافل عن كون أن غزو الكويت ومن بعد تحريرها مثلا ما كان له أن يتخذ نفس المسارات المعروفة إذا لم يكن الحدث قد واكب رقود العملاق على سرير الموت انتظارا لخروج الروح فلم يكن له أن يكون نفس العملاق مع قضية خليج الخنازير في الستينات أو تحرير فيتنام في السبعينات.

شاهد القول أن الكتاب الذي يقع في أحد عشر فصلا قد تتبع بمنهج وصفي وثائقي، بإقرار من مؤلفه، الامبراطوريات العالمية تاريخا وآيديولوجية كمدخل موفق لاستعراض المنهج الماركسي ميلادا وموتا، وذلك أيضا كان اختيارا موفقا لعرض حقبتين هامتين في مسار الاتحاد السوفياتي والتطبيق الشيوعي، والإشارة هنا الى ستالين وامتداده في حقبة بريجنيف. (الصفحات من 61 الى 78).

والى ذلك صاحب التوفيق المؤلف في استحداث تلك الصلة الماثلة ماضياً وحاضرا بين الاتحاد السوفياتي في شموخه، وبينه وبين العالم العربي حتى بعد سقوطه. وطبيعي هنا خضوع المؤلف، أو تجاوبه مع المنهج الذي تخيره، فتجده يعرج على جذور الصهيونية وامتدادات تخريبها في روسيا ويصاحبه التوفيق وهو مذكر للتناقض بين الصهيونية والفكر الشيوعي كما رآه لينين بقوله أن دفاع بعض الأحزاب الاشتراكية عن الفكرة الصهيونية هو انحطاط بالنضال والانتقال به من مبدأ الأفكار والمبادئ الى ميدان الشكوك والاشارات وتمجيد الآراء المسبقة التي تكونت عبر التاريخ، صفحات 95 وما بعدها. ويتابع المؤلف امتدادت الصهيونية ومشروع الأمة اليهودية الى المنطقة العربية، فيجد المؤلف نفسه أمام لمسات إنسانية يكون من الصعب على أي مؤلف أن يفلت منها، وأعني آثار انكسارات كثيرة شهدتها الأمة العربية والاسلامية في تعاطيها وتعايشها مع القضايا الدولية بما فيها الحرب الباردة وسائر مستحقاتها والمشروع التآمري على الأمة بسياقاته المعروفة، وهنا يودع الأمير المؤلف بذكاء شديد وللحظات بسيطة منهجه ليركن الى انسانيته، وذلك حق مشروع

طالما أنه لم يهدم البنيان الذي أرهق نفسه في تشييده وأعني منهج البحث الأكاديمي الصارم، ومن عمق انسانيته المتشبعة حتى النخاع بعروبة أصيلة، واسلاموية متمكنة، يجد نفسه يقارن بين امبريالية غربية تنهب البشر والشعوب وواقع جده المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود كرجل بطل يمد يده للعشائر، ويمضي بالمقارنة الى عمق عميق المعاني حين يقول: بين غائر قادم من الخارج وبين صاحب أرض يلتصق بجذور نخيلها في عمق.

كتاب «غورباتشوف.. سقوط العملاق» ليس من نوع المؤلفات التي تقفز على موضوع القضية بالكليات وإنما بالتفاصيل، بل وأدقها أحيانا من دون رتابة، وكما استقصى المؤلف واقع الاتحاد السوفياتي قبل غورباتشوف، وصف واقعه السابق والتالي لتولي غورباتشوف السلطة بدءا من رياض الأطفال ودور الحضانة بأعدادها ومرورا بالمسارح ونهاية بالبرنامج الموسع للإجراءات الاجتماعية صفحات 30 و31 و32.

ويبلغ الكتاب ذروته الدرامية في الفصول الأربعة من السابع الى العاشر ويخصصها على التوالي لغورباتشوف والخيانة على مسرح العمليات ثم التحول المستحيل وفي التاسع الدعاية والإعلام وجها لوجه وأخيرا وبالفصل العاشر السقوط التاريخي انهزام الشيوعية عالميا.

وهنا عبر هذه الفصول نجد أنفسنا أمام صورة فسيفسائية للمجتمع العالمي بتضاريسه المعروفة قبيل سقوط العملاق حيث فائض الانتاج الغذائي غربا في كندا وأوروبا وأميركا يدفع صناع القرار الى إبادته وحيث الاتحاد السوفياتي يئن في أزمة ثلاثية نقل المؤلف عن غورباتشوف تسميتها بالأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويستصحب المؤلف هنا وكنهجه كل حقيقة علمية وكل إحصاء، ليس من باب دعم الفكرة فقط، ولكن من باب إظهار ما يمكن أن تسميه عضلة التمكن من القضية فنجده يرصد بدايات أزمة العملاق بدءا من تدني انتاجية العمل داخل العملاق الى 30 في المائة من معدلاتها في المانيا وفرنسا وبلجيكا ونهاية بارتفاع نسبة الاستخدام الزائد من نحو 19 في المائة عام 1975 الى أكثر من 26 في المائة مع سنوات تدشين غورباتشوف للبروسترويكا والغلاسنوست صفحات 130- 131 - 132 وما بعدها.

وهنا أحسن الكاتب بربطه مشروع غورباتشوف بالبيروقراطية واستصحب كل منطق ممكن وكل اداة سهلة أو صعبة لجهة التمكين لرؤيته بأن ذلك التحول الذي نشده الرجل كان مهمة مستحيلة سواء بحساب ارتكان غورباتشوف نفسه الى حسن نية النظام الرأسمالي ص 147 أو الى منهج المخادعة التي اتبعها مثل قوله بأن حلوله هذه تستلهم الفكر الاشتراكي. ولم يفت على المؤلف بالطبع أن يستقصي سيرة غورباتشوف بحثا عن ما يستوقف في هذا الرجل التراجيدي الذي حولته قراءات الى انسان عبقري يخفي خلف وسامته اسنانا حديدية الى أخرى لم تر فيه غير سياسي خائب (ص 111 وما بعدها).

كتاب الأمير محمد بن عبد العزيز كتاب من النوع الذي يجمع بين الأكاديمية في البحث وتوافر الرؤية المسبقة لعالم عايشه الأمير فاستطاع وبأمانة هي من شروط البحث ألا يتدخل في نتائج وتداعيات واقع باسم الهوى أو الميل.

* «غورباتشوف: سقوط العملاق السوفياتي»

* المؤلف: الأمير محمد بن عبد الله بن عبد العزيز آل سعود

* الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية 2003

5 مشاركة Tweet Like 0

بريد طباعة